8

الحرية... أخيرًا!

ها قد غادرتُ البيت!

لم أعد أسكن مع والديّ. صرت في الجامعة الجزائرية حيث حلمت من سنوات أن أكون! في الجزائر العاصمة أخيرًا، في المدينة الجميلة الكبيرة حيث الحرية والعلوم السياسية التي لطالما رغبت بدراستها، وحيث أكتشف الماركسية والرفاق والحب والإباحية. قلت وداعًا لقيودي وتقاليدي بل تقاليد أهلي. وداعًا فلسطين. الأرض العتيقة، أرض أمي المزروعة في قطع مطوية من دانتيل مصْفَرٍ مطرز بخيوط من فضة اهترئت بفعل الزمن وطول الحفظ في الحقائب. وداعًا فلسطين، تحررت منك الآن، بتّ حرة وخفيفة. لا وطن، لا أرض، لا دولة، لا سُلطة، لا سلطة بأي حال من الأحوال.

ها أنذا أكتشف في الجامعة الرفاق ونقاش الأفكار. مفكرون من اليسار مؤمنون بالنضال العالمي لشباب العالم أجمع، تجمعهم أفكار لا تشابه تلك التي كانت لأبويّ أو لفلسطينيين على شاكلتهم. عفا الزمن عليهما وعلى تركتهما الثقيلة، على ذكرياتهما وصور بير السبع وغزة. كنّست كل هذا بعيدًا ورحت أتذوق الحبّ والخمرة حتى الدوار. كَثُر المحبون! عديدون ومتنوعون ومتحررون. أما الطلاب الفلسطينيون الذين أتوا من هناك فقد بقيت علاقتي بهم محدودة، أفرّ بجلدي منهم ما إن يذكروننني بوالديّ. ثمّ عرفت رجلًا ولا كل الرجال، صار معبودي الأوحد. علي الكنز، المهيب العظيم بثقافة مذهلة نقف أمامها معقودي اللسان. دماغ مسكون بالعالم، الثالث منه على وجه الخصوص. من خلاله تعرفت على إيما بوفاري، إيمانويل كانت، فيوليت لودوك، تانجرين دريم، السمفونية الخامسة، فرنسوا كوبرين، هنري ميلر، كارل ماركس، زينوفييف، و... اليسار العربي. كل هذا المزيج العجيب لأجله، بعت كل شيء، أبي وأمي، حتى أرضي كرمى له. في الحقيقة، سبق وبعت أرضي. عبدت رجلي هذا، محرري الذي أوقعني في عبودية الحب الممتعة.

تركت والديّ فسقطا على الفور فريسة المرض. هل كان ذلك ذنبي؟

أصيب والدي بسرطان البروستات ثم العظام، كانت آلامه لا تطاق. كنا في 1982 أثناء حرب لبنان ومجزرة صبرا وشاتيلا. كنت ورجلي المعبود على وشك الزواج حين نُقل أبي على وجه السرعة إلى مستشفى فيل جويف

في باريس. لكني قررت البقاء في الجزائر قرب حبيبي ولم أكن أفكر كثيرًا في أمي التي لقيت نفسها وحيدة فجأة. تراجعت كذلك في اللحظة الأخيرة عن مرافقة أصدقائي الفلسطينيين إلى لبنان "ليحاربوا" كما كانوا يقولون. كان يتوجب علي المشاركة في حرب بيروت معهم، لكن لم يكن بمقدوري ترك علي حبيبي العظيم. كنت مشتتة بين كل هذ العوالم، أحسّ كما لو أن ضبابًا يحيط برأسي وأغلالًا تقيد قدميّ. أخبرني الرفاق فيما بعد بأن التواجد على أرض المعركة ساحر ومذهل وشعرت بالعار لعدم مشاركتي إياهم هذه اللحظات. وصفوا لي مغامراتهم بعد زوال لحظات الرعب وبعد النجاح بتفادي الطلقات التي كانت تنهمر عليهم من جميع الاتجاهات، حينها كانوا يستقلون سيارت الجيب العسكرية لتنطلق بهم شبانًا وشابات معًا فتتطاير شعورهم وتتعالى قهقاتهم الصاخبة وهم يخفون زجاجات البيرة بين أفخاذهم، وفي حمى المعارك لم يكونوا يفكرون سوى بالنفاذ بجلدهم من جديد والعودة لممارسة الحب.

كانت رفيقاتي الفلسطينيات يعانين من الكبت ويتأرجحن بين الإغواء والأفكار وهراء الكلام. لينين من هنا و"ما العمل" و"ثورة حتى النصر" من هناك. أما أنا فكنت أحرضهن على تحرير أنفسهن وأجسادهن من قيود يحلمن بكسرها ولا يجرؤن، كن يمسكنه هذا الجسد ويتناقشن ويتناقشن، بينما كنت سكرى ومنتشية بكل شيء ومستعجلة تمامًا، زيادة لا شك. لم أنتظر الحرب لأحلم وأقع بالحب، كنت على يقين بأن المزيد والمزيد منها

سيحدث وأنني لن أشارك بها أبدًا مع أنني مَعْنيّة بها دائمًا وأبدًا. صور هذه الحرب تعبر شاشتي ومذبحة صبرا وشاتيلا تتجاوز طاقة احتمالي، وإضافة إلى تلك المصائب كانت هناك أمي التي تنوح.

خلال مرض أبي انتقلت أمي إلى بيت آخر مخصص للموظفين أكثر بؤسًا من سابقه. أبي أعيد إلى الجزائر بعد أن تدهورت حالته وأصبح هيكلًا عظميًا وتوفي في أحضاننا هزيلًا وعيناه تلتمعان بلهب محموم. مات دون أن يدرك ودون أن ندرك إن وعى ما حصل له. أما التلفزيون الجزائري فتابع أثناء ذلك بث صور جثث صبرا وشاتيلا. أبي، كان قد مات، كان هو أول من مات.

رحل أبي إلى منفى جديد أبدي وحقيقي لا رجعة منه، منفى استقر به في أعمق أعماق الأرض، أرض الآخر. تربة باردة وعميقة وتعجّ بالديدان في أرض صامتة تخصّ جميع البشر، لا تتفوه بشيء وتأخذ كل شيء. أرض الجميع، تلك التي تحضنك للأبد وتتلقى أوجاعك ربما لأنها تخجل مما تحملته عليها. بضعة ضربات معاول وتحتضنك للأبد بتكتم شديد وربما لتعطيك فرصة في مكان ما؟ من يدري؟

في كل الاحوال، في هذا اليوم عادت أمي وحيدة لمقرها الجزائري الجديد.

هناك ستبقى وحيدة بقية العمر.